كمال الإيمان في الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى وقدره

إخوة الإيمان:

حياة الإنسان لا تدوم على حال، ولا يستقر لها قرار، وكلما تطلع المرء إلى أمر طلب غيرَه، وكلما كان على حال تاقت نفسُه إلى حال أخرى، وكلما اشتهى شيئاً وحصل عليه سعى إلى غيره، وكلما وصل إلى منصب أو مكانة طمع في غيرها، وقد وردعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لو كان لابن آدم واديانِ من مالٍ لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب (متفق عليه)أيها المؤمنون: كمال الإيمان في الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى وقدره، لقوله صلى الله عليه وسلم: وَارْضَ بِما قَسَمَ الله لَكَ تَكُنْ أَغْنَى الناسِ، والرضا بما قسَم الله يتضمن كمالَ الانقيادِ لله ولرسوله، وإن السعيد الحق هو من رضي بما قسَم الله له، وصبَر لمواقع القضاء خيرِه وشره، وأحسَّ وذاق طعم الإيمان؛ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الرِّضَا، وَمِمَّا يُبَلِّغُكَ مَنْزِلَةَ الرِّضَا يَا عَبْدَ اللَّهِ: أَنْ تُوقِنَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، فَهَنِيئًا لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ مُرَادَهُ، وَاطْمَأَنَّ لِقَضَائِهِ، فَبَلَغَ مَنَازِلَ الرَّاضِينَ، وَارْتَقَى فِي مَدَارِجِ الصَّابِرِينَ، قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل: إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ القَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ، فَكُنْ مِمَّنْ يَكْسِبُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ أَجْرًا، لَا مِمَّنْ يَجْنِي بِسَبَبِهِ وِزْرًا، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ مَالٍ أَوْ وَظِيفَةٍ، فَالرِّزْقُ مَقْسُومٌ، لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَأَمْرٍ مَعْلُومٍ، ألم يَقُلْ ربنا تَعَالَى: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...الرضا بما قَسَمَ الله أيها الإخوة هو حالة نفسية تتميز بالقبول والاطمئنان لما يصيب الإنسان أو يفوته، وهو ضد السَّخط، ويُكسب صاحبَه هدوءاً وسعادة وتوازناً، وهو مرتبة عالية من الصبر، وتتضمن التسليم بقضاء الله وقدره وقبولِه بحكمة ورحمة مهما كان، ولقد تعرضت أمة الإسلام أفراداً وشعوباً وجماعات للضعف والهوان والشتات، وتعرضت للنكبات والنكسات على فترات من الزمان حين استبدلت الرضا بربها ونبيها ودينها بالرضا بالدنيا وشهواتها وملذاتها، بل وسعت إلى طلب رضا أعدائها، وتنصلت عن قِيَمِها ومبادئها، فزادت تعاستُها وزاد شقاؤها، وعندما تعود إلى طريقها المستقيم تعود لها خِيرَتُها ومكانتُها، عباد الله: عِبَادَةٌ قَلْبِيَّةٌ، وَمَنْزِلَةٌ إِيمَانِيَّةٌ، مَنْ وُفِّقَ إِلَيْهَا نَالَ رِضَا الرَّحْمَنِ، وذَاقَ لَذَّةَ الْإِيمَانِ، إِنَّهَا مَنْزِلَةُ الرِّضَا بقضاء الله وقدره، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نبيا ورَسُولًا، أَتَدْرُونَ مَا مَعْنَى الرِّضَا يَا عِبَادَ اللَّهِ؟ إِنَّهُ سُكُونُ الْقَلْبِ عِنْدَ الْقَضَاءِ، وَطُمَأْنِينَتُهُ سَاعَةَ الِابْتِلَاءِ؛ ثِقَةً بِلُطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَقِينًا بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، لأن الْمُدَبِّرَ لِلْأُمُورِ هُوَ الرَّحْمَنُ، الْعَالِمُ بِمَا يَصْلُحُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، فَإِذَا أَيْقَنَ الْمَرْءُ بِذَلِكَ؛ لَمْ يَتَمَنَّ غَيْرَ اخْتِيَارِ رَبِّهِ له، وَلَمْ يَبْتَغِ خِلَافَ قَدَرِهِ، وَتِلْكَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ، الَّتِي تَخَلَّقَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَسَأَلُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، كما قَالَ زَكَرِياء عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَأَلَ رَبَّهُ الْوَلَدَ: وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، ولا نَصِلُ إِلَى مَنْزِلَةِ الرِّضَا إلا بِأَنْ نُوقِنَ أَنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ لَنَا؛ خَيْرٌ مِنِ اخْتِيَارِنَا لِأَنْفُسِنَا، فَنُسَلِّمَ لَهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَعِنْدَ الْمَنْعِ وَالْعَطَاءِ، مُسْتَحْضِرِينَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وتعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، المؤمن مصاب مبتلى ويعلم ما لهذا البلاء ولتلك المصيبة من أجر عظيم، وثواب جسيم، ورَبُّنا سبحانه وتَعَالَى لَا يُقَدِّرُ إِلَّا خَيْرًا، وَيَجْعَلُ فِي الرِّضَا بِمَا قَدَّرَ خَيْرًا، فَخَلِّصْ يا عبدالله قَلْبَكَ مِنْ دَاءِ الْحُزْنِ الْمُسْتَمِرِّ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، فَذَلِكَ يَدْفَعُكَ لِلتَّشَاؤُمِ وَالسَّلْبِيَّةِ، وَتَأْجِيلِ الْمَشَارِيعِ الْأُسَرِيَّةِ، وَتَحَرَّرْ مِنْ كَثْرَةِ التَّسَخُّطِ وَالتَّقْدِ، وَعَدَمِ تَقْدِيرِ مَا يُبْذَلُ مِنْ جُهْدٍ، وَاتَّقِ سُوءَ الظَّنِّ بِرَبِّكَ، وَالنَّظَرَ إِلَى مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ، فَإِنَّ مَنْ مَدَّ عَيْنَيْهِ ؛لَمْ يَرْضَ بِمَا لَدَيْهِ، وَوَقَعَ فِي أَسْرِ الْحَسَدِ وَالْمُقَارَنَاتِ السَّلْبِيَّةِ، وَنَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَالْمُؤْمِنُ يَعِيشُ الْعِيشَةَ الرَّضِيَّةَ، وَيَحْرِصُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ، وَيَنْظُرُ لِلْأُمُورِ بِعَيْنِ الرِّضَا عَنْ رَبِّهِ، فَيَشْكُرُهُ عَلَى النِّعَمِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، مِنْهَا نِعْمَةِ الدِّينِ وَالصِّحَّةِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ، وإِنَّ مِمَّا يُعِينُ الْمُؤْمِنَ عَلَى بُلُوغِ مَنْزِلَةِ الرِّضَا؛ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ رِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ؛ سَبَبٌ لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَمِفْتَاحٌ لِفَيْضِ بَرَكَاتِهِ عَلَيْهِ، كما قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ الرِّضَا طَرِيقٌ إِلَى الْجَنَّةِ، لقوله صلى الله عليه وسلم مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَرَسُولاً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَطُوبَى لِمَنْ أَقَرَّ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَلْبُهُ، وَنَطَقَ بِهَا لِسَانُهُ، لِيُبْشِرِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ورسولا، فَأَنَا الزَّعِيمُ لِآخُذَ بِيَدِهِ حَتَّى أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، فالخير كله في الرضا بقضاء الله وقدره، قال صلى الله عليه وسلم: مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ورسولا، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ (مسلم)ولقد كتب عمرُ الفاروق إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يقول له: أما بعد: فإن الخير كلَّه في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر، وإن السَّخط والجزع وعدمَ الرضا على قضاء الله وقدره، وبما قسمه للعباد لا يزيد المرءَ إلا شقاءً وتعاسةً وبُعداً عن الله، ويُحرِم صاحبَه من راحةِ البال وطمأنينةِ النفس، لقول النبي صلى الله عليه وسلم-: إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السخط (البخاري)هذا هو الحال، حال المؤمن يتقلب في الرضا، فإذا جاءه القدر، وجاءته المصيبة، أو جاءه الخير، أو جاءته النعماء والسراء، أو جاءته الضراء عنده سيان؛ لأنه يعلم أن هذا مكتوبٌ عليه، ومقدَّر عليه؛ وهذا من الإيمان بالركن السادس، وهو الإيمان بالقدر خيرِه وشره، والرضا بقدر الله هو السياج الذي يَحمي المسلم من تقلبات الزمن، وهو البستان الوارف الظِّلال الذي يأوي إليه المؤمنُ من هجير الحياة، والإنسانُ بدون الرضا يقع فريسة لليأس، و تتناوشه الهمومُ والغمومُ من كل حدب وصوب، ولن يجد ملاذاً ولا راحة من الطمع والجشع والحسد وأمراض القلوب وسخط علام الغيوب إلا بالرضا بما قسم الله له، من [كتاب بشارة المحبوب بتكفير الذنوب]

خطبة الجمعة ليوم 21 نوفمبر2025 م